تتمة

في شهـر حزيران من عام 2008م، سافرت إلى مدينة كيب تاون فـي جنوب إفريقيا لحضور المنتدى الاقتصـادي العالمي المخصوص بإفريقية، وقـد تحدثت فيه عن التقنية المستخدمة في الدول النامية. كنـت عضواً في حلقة نقاش يديرها دان شاين من مبـادرة أدفانست مايكـرو ديفايسز 50×15 التي تعمل على إيصال الإنترنت إلى نصف سكّان العالَم مع مطلع عـام 2015م. وكنت قـد قابلت دان فـي أروشا، وأصبحنـا أصدقاء. لذا، فعندمـا طلب إليَّ التحدث والمشاركة في ذلك الحدث المهم، وافقت بكلّ سرور.

ولمّـا حـان دوري في الحديـث، شرحـت للحضـور كيفية بنائـي الطاحونـة الهوائية، وأخبرتهـم بشأن العقبات المختلفة التي واجهتني، وبخاصة عند البحث عن مولّد. أخبرتهم أيضـاً عـن جيفري، وكيف كنت آمـل أن يتمكّن من البدء بتعليم الناس فـي القرى المحيطة كيفية بناء طواحين هوائية في أثناء وجودي بعيداً في المدرسة. وبعد أن فرغت من حديثي، رفع بعض الحضور أيديهم، وسألوا عن رأي الحكومة المالاوية في مشروعي.

فقلـت: **الحكومـة لا تعلم شيئاً عنه**. كنت متأكّداً مـن ذلك؛ فأنا الذي أخبرت الرئيس بذلك للتو.

كان الرئيـس المالاوي بينغو وا موذاريكا من ضمـن الحضور. وقبل ذلك بليلة، كنّا معاً علـى مأدبة العشاء نفسها. كنـت معجباً بالرئيس موذاريكا؛ لأنّه يهتـم بالمُزارِعين أمثالنا، ويعمل ما في وسعه لكي تتمكّن عائلات كالتي أنتمي إليها من تحمُّل ثمن السماد مرّة مجدّداً.

كان الرئيس جالساً إلى طاولة أُخرى. وبعد العشاء، مشيت نحوه، ثمّ عرَّفت عن نفسي باللغة الإنجليزيـة. أخبرته أنّني متحدث في المنتدى، وأنّني دُعِيـتُ بسبب الطاحونة الهوائية التي بنيتها.

فوجـئ الرئيـس، ثمّ قال: **هذه أخبـار جيدة**، ثمّ وقف إلى جانبـي لالتقاط صورة. كنت فخوراً جدّاً. وما زالت تلك الصورة معلَّقة على جدار في غرفة المعيشة المخصوصة بوالديّ، اللذين يحرصان على أن يراها زوّارنا كافة.

بعـد مغـادرة كيب تـاون، سافرت إلـى شيكاغو جـوّاً حيـث سأُكرَّم في مُتحـف العلوم والصناعـة. وكنـت قـد شاركت فـي معرض (**تقـدّم سريـع: اختراعـات مستقبليـة**)، الذي يلقـي الضـوء على بعض التقنيـات المبتكرة، والأفـكار التي من شأنها تحسيـن وضع سكّان العالَـم. كان قاطع الدارة والمفتاح الكهربائي اللـذان صنعتهما بداية الأمر موجودين هناك إلـى جانـب معروضات تحتفي بأعمـال أشخاص، من أمثال: إيانا هـوارد، وهي مهندسة في تصميـم الإنسان الآلي، عملت على مركبة سمارت ناف مارس التي أرسلتها وكالة ناسا إلى المريـخ، ودانا مايرز التـي اخترعت سيارة تعمل بالكهرباء، وتصل سرعتها إلى سبعين ميلاً في الساعة. كان شرفاً عظيماً لي أن أكون ضمن تلك الكوكبة من الأشخاص العباقرة، وكان من الرائع أيضاً، والغريب في الوقت نفسه، رؤية صورتي على ملصق كبير بحجم جسمي.

حين عدت إلى مالاوي، قضيت الصيف برفقة عائلتي وأصدقائي، وعملت صيانة عاجلة ملحّـة للطاحونة. وكنت كلّما عدت إلى البيت وجـدت أنّ إحدى الشفرات قد انفصلت نتيجة الرياح الشديدة. وقد استمر حدوث ذلك حتى بعد أن استبدلت شفرات فولاذية صنعتها من برميـل نفط بالشفرات البلاستيكية القديمة. لاحظت أيضاً أنّ النمل الأبيض قد نخر أعمدة البـرج الخشبية، فأصبح تسلّقها عند القيام بأعمال الصيانة يعدّ خطراً أكبر. وكنت أحرص علـى ارتداء خوذة مثل تلك التي يضعها سائقـو الدرّاجات الهوائية؛ للوقاية في حال سقطت على رأسي.

وذات مرّة، كنت في زيارة للولايات المتحدة إبّان عيد الميلاد، فتلقّيت خبراً مفاده أنّني حصلت على منحة دراسية في **أكاديمية القيادة الإفريقية**، وهي مدرسة ثانوية تمتدّ فروعها لتشمل دول القارة الإفريقية كلّها، ويقع مقرّها الرئيس في جوهانسبيرغ بجنوب إفريقيا.

تضمّ المدرسة طلبةً من ثلاث وخمسين دولة، وتُعنى بتدريب الجيل الصاعد من القادة في إفريقيا. وقد اختير مئة وستّ أشخاص من بين ألف وسبع مئة متقدِّم للسنة الافتتاحية. كان معظم هؤلاء الطلبة من المخترعين والرياديين أمثالي، ممّن تخطّوا عقبات جِساماً؛ ليوفِّروا حياة فُضلى لعائلاتهم وجيرانهم. وكان الآخرون من أذكى الطلاب في بلدانهم، ممّن أحرزوا أعلى العلامات في الامتحانات الوطنية.

وعلى الرغم من الجهد المضني الذي بذلته في أثناء وجودي بمدرستي السابقة في ليلونغوي، فإنني كنت متأخّراً في مادتي اللغة الإنجليزية والرياضيات. وكنت قد عرفت أنّ مدرِّستي الجديدة صارمة جدّاً، وخفت أن يكون زملائي متقدِّمين عليَّ كثيراً، وأصغر سنّاً أيضاً. ولما كان التحدث بالإنجليزية من أكبر هواجسي، فقد تطوّع أحد رعاتي الأمريكيين لإرسالي؛ كي أدرس اللغة في كامبريدج بإنجلترا. فحضرت دروساً مدّة خمسة أسابيع قرب مبنى جامعة كامبريدج، ودرست اللغة الإنجليزية على أصولها برفقة طلاب من الصين ،وإيطاليا، وتركيا.

وفي أثناء العطل الأسبوعية، كنت أتمشّى في المدينة القديمة، وأتعلّم عن مبانيها التي كان كثير منها قد بُنِي يدويّاً قبل أكثر من أربع مئة عام، من دون استخدام أيٍّ من التقنيات الحديثة. لقد منحني ذلك ثقة أكبر بقدرتنا – نحن الأفارقة – على تطوير قارتنا؛ إذا اتحدنا في تفكيرنا ومواردنا الوافرة فحسب، من دون انتظار أحد يفعل ذلك عنّا.

بعد عودة خاطفة إلى البيت في شهر آب؛ لجمع حاجياتي وتوديع عائلتي مرّة أخرى، ركبت طائرة متوجِّهة إلى جوهانسبيرغ. وكانت الحصص في الأكاديمية صارمة كما توقّعت. درست عشر مواد في الفصل الأول، منها: الكيمياء، والفيزياء، ومادة في العمل الريادي، وقد أصبحت هذه الأخيرة مادتي المفضّلة.

تقع الأكاديمية خارج جوهانسبيرغ في مبنى جميل يحتوي على أشجار عملاقة، وملاعب كرة قدم خضراء، وكثير من الطواويس التي كانت أكثر إزعاجاً في الصباح من الدجاجات الصاخبة الموجودة في بيتي. وقد شاركْتُ في غرفة فتًى كينيّاً يُدعى غيثيورا، وسرعان ما أصبحنا أصدقاء. لم يكن غيثيورا مضطراً إلى مشاركتي السرير نفسه، وكنت متأكّداً – على أيّ حال – أنّه يغسل قدميه أكثر من زميلي السابق في السكن.

شعرت لأول مرة منذ مؤتمر **تي إي دي** أنّني محاط بزملاء حقيقيين يشاطرونني الدوافع نفسها. ولكن، بطريقة أعمق هذه المرّة؛ فقد عانى جميعنا الأمرّين للوصول إلى هذا المكان.

درس معنا في الأكاديمية ميراندا نياذي من كوازاغيلي بجنوب إفريقيا. وكان إضراب شامل للمدرِّسين قد شلَّ مدرستها، فتولَّت (ميراندا) زمام الأمور، وبدأت تدريس زملائها الطلاب الرياضيات، والعلوم، والجغرافيا، وحالت دون إغلاق المدرسة. وكذلك بيليندا مونيمو من هراري بزيمبابوي، التي ساعدت طفلة يتيمة من أبناء جلدتها على إنشاء مزرعة دجاج وتفريخ ناجحة؛ لكي تتمكَّن من دفع رسومها المدرسية. ومنذ ذلك الحين، افتتحت ميراندا محلاً صغيراً لأشرطة الفيديو؛ لكي يتمكَّن الطلاب من استعارة أشرطة تعليمية بالمجان بدل تضييع وقتهم في مراكز الخمور. درس معنا أيضاً صديقي بول لوريم (**الصبي التائه**) من جنوب السودان، الذي نجا من أهوال الحرب، وعاش وحيداً من دون أبوين في مخيّم للاجئين، مثل صديقي الآخر جوزيف مونيامبانزا من الكونغو، الذي فرَّت عائلته نتيجة القتال، وعاشت في مخيّم بأوغندا حيث تلقّى جوزيف تعليمه.

لقد منحتني قصص هؤلاء الأشخاص كافة إلهاماً كبيراً. حتى حينما تزداد الدروس صعوبة، وأجِد عزيمتي قد تراخت، فإنّ مجرّد وجودي بجانبهم يساعدني على الاستمرار. وما زلت أسأل نفسي: **كم شخصاً من أمثالنا ما زال يكافح في مسيرة حياته ورحلته؟**. إنّ التفكير فيهم يُذكّرني بمقولة قرأتها حديثاً تُعزى إلى الموقّر العظيم مارتن لوثر كينغ الابن، يقول فيها: «**إن عجزت عن الطيران فاركض؛ وإن عجزت عن الركض فامشِ؛ وإن عجزت عن المشي فازحف**». إذن، يتعيّن علينا تشجيع أولئك الذين ما زالوا يعانون للتقدُّم نحو الأمام. إنّني أنا وزملائي الطلاب لم نألُ جهداً عن بذل مزيد من العمل البنّاء، والسعي

إلـى إيجاد إفريقية جديدة عصرية تكـون موئلاً للقادة بدل البائسين، وموطناً للابتكار بدل التسـوّل. أتمنّى أن تصل هـذه القصة إلى أخواني وأخواتي ممّن يعملـون على رفعة أنفسهم ومجتمعاتهـم، مـع ما يحيط بهم مـن بؤس ومعاناة وشقـاء. أريدهم أن يعرفـوا أنّهم ليسوا وحيديـن في رحلتهم هـذه، وأنّهم يستطيعون – بتضافر الجهـود – رفع ذلك الحمل الثقيل من سوء الطالع عن كواهلهم كما فعلت أنا تماماً، واتخاذه مُنطلَقاً نحو بناء مستقبل أفضل.

obeikandl.com